

دراسة جمالية  
في شعر الرضي

الدكتورة

سميحة غنام

( مجلة جامعة دمشق )

## دراسة جمالية في شعر الشريف الرضي

الدكتورة سميحة غنام\*

### الملخص

يتناول البحث دراسة النماذج الفنية الجمالية في شعر الشريف الرضي، محاولاً أن يبين وظيفة هذا الشعر في حياة صاحبه، وأثره في الحياة الفكرية والأدبية العربية والإسلامية. يعرض في البداية لمحة عن حياة الشاعر وسيرته، ويتوقف عند عصر الشاعر لما له من أهمية في حياة الرضي وغيره من الشعراء مشيراً إلى الجوانب السياسية والاجتماعية والفكرية التي تؤثر في الإنسان والمجتمع، ثم يبين علاقة الفن بحياة صاحبه، وقد صنّفها المفكر الفرنسي شارل لالو في خمسة أنواع دعاها بالعقد النفسية الفنية، فيوضح البحث تلك العقد من خلال الشعر العربي، ينتقل بعدها إلى دراسة العقد الفنية في شعر الشريف الرضي، فيدرس عقدة الاقتصاد، ويركز على حربيات الشاعر التي تعد تحقيقاً لرغبات لم ينجزها الشاعر بل اكتفى بعرضها وتصويرها، وعقدة الذاتية التي تكشف عن تأثر الشاعر بمظاهر الجمال الأثوي في مواسم الحج، وتعبيره عنها في طائفة كبيرة من أشعاره تدعى بالحجريات، ثم يشير إلى عقدة الهروب من الواقع التي صرح بها حيناً، وألمح إليها أحياناً.

\* قسم اللغة العربية - كلية الآداب - جامعة دمشق

## مقدمة:

يقول الشريف الرضي:

وليسَ من الفراغِ يُثْرَنَ عني نَفَائِثُ يجيئُشُ بها الجَنَانُ  
ولكنْ مهجَةً مُلئتْ ففاضتْ وضاقَ القلبُ واتسعَ اللسانُ<sup>(1)</sup>

وهذا يدل على أن بعض الناس في زمن الشاعر قد انتقدوه بأن أشعاره الكثيرة ناشئة عن الفراغ الذي كان يعيش فيه، فأراد أن يرد عليهم، ويقول لهم في هذين البيتين: إنه ذو موهبة شعرية قل أن توهب لغيره، وإن ما يجول في نفسه من خواطر ومشاعر يضيق بها قلبه، فيجد في لسانه المطواع البليغ متسعاً لينفتح بها، ويعرب عنها أي إعراب.

ونحن نريد في بحثنا هذا أن نتقرب بعض تلك المشاعر والخواطر التي كانت تجيش في صدر الشاعر وتغدو "نفائث" شعرية، وأن نتبين تشعبها ووظيفتها في حياة شاعر عربي كبير قيل فيه (( إنه أشعر قبيلة قريش)). وكانت له مكانة عالية في المجتمع الإسلامي طوال عهد من عهود الخلافة العباسية بصفته نقيب الطالبين وأمير الحج والمظالم وعالماً من علماء الدولة ومؤلف عدة كتب من أهمها وأشهرها كتاب (نهج البلاغة) الذي جمعه من أقوال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وكان له أثر عميق وطيب في الحياة الفكرية والأدبية العربية والإسلامية.

إن بين المعارف والعلوم وشائج واضحة وخفية وصلات ظاهرة وباطنة تصل بعضها ببعض، وتعين بعضها على تفهم ما يجري من شؤون في بعضها الآخر، مثال ذلك أن دراسة فلسفة الفنون ومذاهب علم الجمال تتيح فهماً أعمق لفنون أصحاب الفنون، ولشعر طائفة كبيرة من الشعراء، ولكثير من إبداعهم وإنتاجهم الفني أو الشعري بوجه خاص، وإيضاحاً لوظيفة الفن أو الشعر في حياة أولئك الشعراء والفنانين، لذلك نعمد بادئ بدء إلى عرض لمحة عن حياة شاعرنا الشريف الرضي

(1) - الشريف الرضي الديوان 487/2 وفي الديوان يُثْرَنَ.

وسيرته وعصره، ثم نلخص آراء المفكر الفرنسي الحديث شارل لالو الذي شغل كرسي علم الجمال وفلسفة الفن سنين طويلة في جامعة السوربون بباريس حول علاقة الفن بحياة صاحبه في كتبه المتعددة، وقد لخص تلك الآراء الدكتور عبد الكريم اليافي في مقالة واسعة على صفحات مجلة التراث العربي (العدد 31) بعنوان " الوجه الآخر للفنان أو العلاقة بين الأثر الفني وحياة الفنان ". وقد صنف المفكر الفرنسي تلك العلاقة في خمسة أنواع دعاها بالعقد النفسية الفنية. ونحن سنطبق تلك العقد على شعر الشريف تطبيقاً مناسباً يوضح وظيفة هذا الشعر الجميل البليغ الجزل في حياة صاحبه ذلك العلم البارز في التراث العربي والإسلامي، وفي الختام نلخص البحث ونبرز رأينا في عموم هذا الشعر ومكانته بين دواوين الشعراء العرب عامة.

### سيرة الشاعر وعصره:

في التاسعة والخمسين وثلاثمئة للهجرة ولد الشريف الرضي الذي ينتسب إلى سلسلة من الأشراف تعود بوليدها إلى الذروة في كرم المحتد وشرف الأرومة ونبل الأصل إلى الشريف الأعظم علي بن أبي طالب رضي الله عنه والزهراء ابنة أكرم البشر وأعلامهم شأناً نبي الإسلام ورسول الحق والخير والعدالة صلى الله عليه وسلم يقول:

إني لمن معشرٍ إن جمَعوا لِعَلِيٍّ      تَفَرَّقُوا عَن نَبِيٍِّّ أَوْ وَصِيِّ نَبِيِّ (1)  
 في بيت تشع منه أنوار العلم والأدب والفقهِ، وتحوطه أقدانيم الإيمان والشرف والمجد نما ذلك الوليد وكبر.. بين ذراعي أب من أعيان القرن منزلة ودراية ومعرفة شب.. في حضن أم عمر قلبها الإيمان، وغذا عقلها العلم ترعرع، فكانت خير أم تحمل الرسالة، أَرْضَعَتْ ابْنَهَا لِبَانَ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ، ودفعته في دروب العز والفخار ليكمل سيره في الطريق التي سلكها أهلها وأهل زوجها من قبل، وليثمر الغصن الجديد رطباً جنياً وثمرًا شهياً. " أبوه ذو المنقبتين أو المناقب نقابة الطالبين

(1) -الشريف الرضي - الديوان 1 / 112.

وإمارة الحج والنظر في المظالم، فنقابة الطالبين تجعل جميع أمور الطالبين وأحكامهم إليه، والنظر في المظالم يشبه منزلة المدعي العام اليوم لكنه أوسع منها<sup>(2)</sup>، يقول الرضي:

حمى الحجّ واحتلّ المظالمَ رتبةً      على أنّ ريعانَ النقابة زائد<sup>(3)</sup>  
وكان أبوه من جلاله الشأن وعلو المكان في عصره بحيث كان سفير الخلفاء  
والملوك والأمراء في الأمور المهمة، وكان ميمون النقيبة مبارك الطلعة ، ما سفر في  
أمر إلا وكل بالنجاح، وفي ذلك يقول الشريف الرضي:

وهذا أبي الأذى الذي تعرفونه      مُقدّمٌ مجدّ أولٌ ومُخلفٌ  
مؤلفٌ ما بين الملوك إذا هفّوا      وأشفوا على حرّ الرقابِ وأشرفوا<sup>(4)</sup>  
وأمة فاطمة بنت الناصر الصغير كانت تقية صالحة على قدر من العلم  
والمعرفة، كفلت ولديها الرضي والمرضى حين زج أبوهما في السجن وعمر  
الرضي زهاء عشر سنين، وعهدت بتربيتهما وتثقيفهما إلى شيخ الإمامية وعالمها  
الجليل الشيخ المفيد، وقد فخر الشاعر بهذه الأم وأشار إلى مكانتها في نفسه قائلاً:  
لو كان مثلك كلُّ أم برةٍ      غني البنون بها عن الأباء  
وحين وافتها المنية والشاعر مازال يخطر في رداء الشباب رثاها بشعر  
ينفطر له القلب ألماً، وتمنى لو اختاره الدهر لها فداء، قال:

قد كنتُ أمل أن أكون لك الفدا      مما ألمّ فكنت أنتِ فدائي<sup>(5)</sup>  
وقد ورث الشريف الرضي المجد والعلو عن هذين الأبوين الجليلين  
العلويين الطالبين ولذلك تراه دائماً يفخر بنسبه الشريف، ويعتز بمجد أجداده قائلاً:  
لنا الدوحة العليا التي نزعنا لها      إلى المجد أغصانُ الجدود الأطيابُ

(2) - العاملي - أعيان الشيعة 9 / 216.

(3) - الشريف الرضي الديوان 1 / 309.

(4) - العاملي - أعيان الشيعة 9 / 216.

(5) - الشريف الرضي الديوان 1 / 26-30 .

إذا كانَ في جو السماء عروفتُها فأينَ أعاليها وأينَ الذوائب (6)  
 وكان أخوه الشريف المرتضى شاعراً مكثرًا وأديباً معروفاً. له ديوان كبير  
 ومؤلفات كثيرة تشهد بعلو مكانته، كان عالماً من أعلام الفقه واللغة والشعر، فقد ابتعد  
 عن حلبة الصراع السياسي واختار طريق العلم والأدب تحصيلاً وتأليفاً  
 وتعليماً، ولكنه على الرغم من ذلك لم يكن بعيداً عن السياسة، فقد شارك أخاه في أعمال  
 النقابة والمظالم والحج نيابة عن أبيه أو مساعدة لأخيه، ثم قام بأمورها بعد وفاة أخيه  
 الرضي (7)، ذاعت أخبار علمه وتقواه بين الناس، ولقبه بهاء الدولة البويهية ببذي  
 المجدين، وخلع عليه وبالغ في إكرامه (8)، وقد قال المعري في رثائه لأبي أحمد  
 الموسوي:

ساوى الرضي المرتضى وتقاسما خطط العلا بتتاصف وتتصاف (9)  
 في يوم أكرت فتح الشريف الفتى عينيه على مشهد خلف الفجيعة في نفسه  
 ومر الألم في قلبه، ففي مجلس المطهر بن عبد الله وزير عضد الدولة قبض على  
 أبيه (10)، وحمل إلى فارس أسيراً لا لذنوب اقترفه لكن لأوهام زينها الأعداء لعضد  
 الدولة، ولاقت قبولاً في نفسه لأن أبا أحمد الموسوي من ذوي الشأن في العاصمة  
 العباسية، وممن يخشاهم على سلطته، فأحس الرضي بأنه فقد مثله الأعلى وأن أهم  
 أعمدة البيت الموسوي مال، وأن بركان الألم يتفجر على لسانه ينبوع شعر وهو ما  
 يزال ابن العاشرة من العمر، واستمر هذا النهر من الفن الجميل طوال حياته، فكان  
 وثيقة مهمة أرخ الشاعر فيها أحداث عصره عامة، وأحداث أسرته وحياته خاصة، فقد  
 عاش في عصر أركانه الصراع والفوضى والجوع من جانب والغنى والتقدم العجيب

(6) - نفسه 1 / 145.

(7) - ابن الجوزي - المنتظم 7 / 276 .

(8) - ابن الجوزي - المنتظم 7 / 234 .

(9) - أبو العلاء المعري - شروح ديوان سقط الزند / 1297.

(10) - الشريف الرضي الديوان 1 / 305.

في المعارف والفن والصنائع من جانب آخر .

أدى الصراع بين أفراد البيت العباسي من جهة والقادة الأتراك من جهة ثانية، وبين الخليفة والوزير وقائد الجيوش من جهة ثالثة إلى تدمير البلاد، فعمت البلاد حالة من الفوضى والاضطراب، وصودرت أموال الناس ، وازدادت الضرائب بغية زيادة أرزاق الجنود من الأتراك، فاستغل الفرس الذين أبعدها من قبل عن الساحة السياسية هذه الحال وأسسوا دولتهم في بلاد فارس والري وهمذان، وحين استتجد قواد بغداد بأحمد بن بويه دخل بغداد منتصراً. فقابله الخليفة المستكفي وخلع عليه ولقبه معز الدولة، فأشرك نجم البويهيين الذين حكموا البلاد ما يزيد على قرن من الزمن تمكنوا خلاله من القضاء على النفوذ التركي، وسلبوا الخليفة الباقية من سلطانه حتى لم يبق له إلا الاسم وبقيّة مال لا تكفي لعيش كريم في بعض الأحيان، وتنفيذ الأوامر الواردة من السلاطين والأمراء.

عاش الرضي في عصر النفوذ البويهي ، وعاصر ثلاثة من خلفاء بني العباس وهم المطيع لله الذي أصيب بمرض الفالج، وما إن انكشف حاله لسبكتكين حتى دعاه إلى أن يخلع نفسه من الخلافة ويسلمها إلى ولده الطائع لله (11)، ولما قلت الأموال عند الأمير بهاء الدولة وكثر شغب الجند قبض على وزيره سابور فلم يغن عنه ذلك شيئاً، فحسن له وزيره القبض على الطائع، وأطمعه في ماله، وهون عليه ذلك (12)، فقبض عليه بخديعة مزريّة، وأخذ مافي داره من الذخائر، وسلبت ثياب أكثر القضاة والأشراف وامتحنوا، أما الشريف الرضي الذي شهد هذه الحادثة فقد بادر إلى الخروج وسلم ، وقال:

من بعد ما كان ربُّ الملك مبتسماً إليّ أدنوه في النجوى ويُدْ نيني  
أمسيت أرحم من أصبحت أعبطه لقد تقاربَ بين العز والهون

(11) - ابن الأثير - الكامل في التاريخ 7 / 53 .

(12) - نفسه 7 / 148 .

لا تَأْمَنَنَّ عَدُوًّا لَانَ جَانِبُهُ خَشَوْنَةُ الصَّلِّ عُقْبَى ذَلِكَ لِلَّيْنِ<sup>(13)</sup> في هذا اليوم حين قبض على الطائع اختلط الناس وظن أكثرهم أن القبض على بهاء الدولة، ونهبت دار الخلافة، وماج الناس إلى أن نودي بخلافة القادر، وكتب على الطائع كتاب بخلع نفسه، وأقيمت الخطبة للقادر في الجمعة التالية<sup>(14)</sup>.

وفي هذا العصر ظهر الصراع بين البويهيين و الفئات الأخرى للسيطرة على مقاليد الحكم الفعلية وتسيير دفة البلاد كل حسب مصالحه، وقد عاصر الشاعر الصراع الذي دار بين بختيار وسبكتكين حيث لجأ كل منهما إلى الحيلة والخديعة للإيقاع بصاحبه والتخلص منه، ولم يكن أي منهما يرعى حرمة للأخر أو لعامة الناس الذين كانوا يزجون في أتون الصراع، ويفقدون المال والولد، فلم يتوان سبكتكين عن الإساءة إلى والده بختيار وإخوته، كما أن بختيار سلك جميع الطرق للحصول على الأموال والتخلص من منافسيه<sup>(15)</sup>. وقد تجاوز الصراع الفئات المتناحرة على السلطة إلى الصراع بين السلاطين أو الأمراء في الأسرة نفسها، فقد استحكمت العداوة بين عضد الدولة وابن عمه بختيار<sup>(16)</sup>، كما نشب الصراع بينه وبين أخيه فخر الدولة فقصده وأخذ بلاده<sup>(17)</sup>، وأمر صمصام الدولة بقتل من بفارس من الأتراك<sup>(18)</sup>، وبقتل اثنين من أولاد بختيار وحبس الباقيين<sup>(19)</sup>، وما لبث أبو النصر بن بختيار أن قتل صمصام الدولة وقال: هذه سنة سنها أبوك<sup>(20)</sup>. وقد تجاوزت الحرب ساحة بغداد إلى البصرة والأهواز وطبرستان والموصل وحلب ودمشق.. ولم يعد غريباً في ذلك العصر أن يستعين أحدهم بأعدائه ليتخلص من أخيه أو ابن عمه، ويستولي على موقعه في السلطة كما فعل الحمدانيون والبويهيون والأتراك.

(13) - الشريف الرضي الديوان 2 / 446 .

(14) - ابن الأثير - الكامل 7 / 51 .

(15) - نفسه - الكامل 7 / 81 .

(16) - نفسه - الكامل 7 / 101 .

(17) - نفسه - الكامل 7 / 170 .

(18) - نفسه - الكامل 7 / 159 .

(19) - نفسه - الكامل 7 / 193 .

والغدر الذي يستكره الشاعر وأمثاله بات سمة خلقية لكثير من معاصريه يقول:  
وتغذُرُ بي الأقاربُ والأداني فلا عجب إذا غدر الصحابُ  
ولا عجب أن يستنكر الشاعر مقامه في بغداد بين هؤلاء الناس:  
فما لي والمقام على رجالٍ دعت بهمُ المطاعم فاستجابوا (21)  
هذا غيظ من فيض، فكتب التاريخ تغص بأخبار الحروب والصراعات التي  
دارت رحاها في حياة الشاعر، وكأن الأرض تحولت إلى مسرح تعرض على خشبته  
مسرحية للصراع الذي يقدم ألوان القتل والدمار.

قاد هذا اللون من الصراع السياسي بين العباسيين والأثراك والديلم إلى  
صراع مذهبي بين السنة والشيعة تجاوز أحياناً حدود الجدل المذهبي بين الفريقين إلى  
حروب وفتن داخلية خلفت الدمار في البلاد، وجرت الولايات إلى السكان الأبرياء.  
فحين وقعت الفتنة بين بختيار وسبكتكين ثارت العامة من أهل السنة ينصرون  
سبكتكين، فخلع عليهم فثاروا بالشيعة وحاربوهم وسفكت بينهم الدماء، وأحرقت الكرخ  
في بغداد، (22) وقد رافق هذا اللون من الصراع فتن كثيرة داخل بغداد وخارجها،  
وظهر العيارون الذين أوقعوا الولايات ببغداد وسكانها، واستفحل أمرهم حتى غلبوا  
على الأمور وأخذوا الخفارة عن الأسواق والدواب (23)، أضف إلى ذلك حوادث  
النهب وشغب الجند لأجل النقد وتأخر العطاء (1). أما غلاء الأسعار فقد أخرج الناس  
إلى الموصل والشام وخراسان (24). وقد ارتفع ثمن القمح كثيراً فمات خلق كثير جوعاً  
وعظم الخطب (25). وهكذا عمت الفوضى وفقد الأمن، ولم يعد الإنسان يحس بالراحة  
أو الأمان، وإذ يستنكر الشاعر هذه الأحوال يحمل الحكام مسؤولية ما يجري قائلاً:

(20) - الشريف الرضي الديوان 1/ 125.

(21) - ابن الأثير - الكامل 7 / 53 .

(22) - ابن تغري بردي- النجوم الزاهرة 4 / 108.

(23) - ابن الأثير - الكامل 7 / 161.

(24) - نفسه 7 / 63.

(25) - ابن تغري بردي- النجوم الزاهرة 4 / 144.

خطوبٌ لا يـقاومها البقاءُ وأحوالٌ يـدبُّ لها السـضراءُ  
 ودهرٌ لا يصح به سقيمٌ وكيفَ يصح والأيامُ داءُ  
 وأملاكٌ يروُن القتلَ غنماً وفي الأموال لو قنعوا فداءً (26)

وليس غريباً أن يستشري داء الفقر في مثل هذه الظروف، وأن يعاني الناس  
 النذل والسغب، وأن يتغلغل هذا المرض في الأحياء والدور حتى يبلغ القصور، وقد  
 عانى الرضي ضيق ذات اليد حين قبض على والده وصودرت أملاكه وهو ما يزال  
 صغيراً، كما عانى منه وهو كبيرٌ في أواخر حياته، قال:

آه من داعين عُدْمٍ ومشيبي رب سقمٍ لا يُداوى بطبيبٍ (27)

وقد عرف الشاعر موضع العلة وشخص أسبابها قائلاً:

الظلمُ والإنصافُ من فعلٍ مَنْ يحكمُ في الحاضرِ والبادي (28)

وما دام حكام الدولة وسوء فعالهم أصل الداء في رأي الرضي فلا بد من تحديد  
 العلاج وتقرير الدواء اللازم، وهذا ما كان في حربيته التي عاشت في حيز الأحلام،  
 أحلام اليقظة، وما تجاوزتها إلى حيز الفعل على الأرض.

في عصر التناقضات هذا يشهد عجب المرء حين يرى الحياة السياسية  
 والاجتماعية تتدرج نحو التدهور والانحدار والحياة الفكرية والعلمية تتصاعد باتجاه  
 الرقي والازدهار، ولعلنا نصيب كبد الحقيقة حين نقول: بلغت الحضارة الفكرية  
 العربية أوجها في القرن الرابع ومطلع الخامس الهجريين، فالزروع التي غرست  
 وآتت أكلها أطيب الثمرات استمرت نحو قرنين من الزمان، وكانت حركة الترجمة  
 والتأليف ما تزال نشيطة، وكانت حركة الشعر والنثر ما تزال متألقة تلقى التشجيع من  
 أصحاب المال والسلطة حتى غدت بغداد في عهد البويهيين قبلة الشعراء

(26) - الشريف الرضي الديوان 1 / 36 .

(27) - نفسه 1 / 205 .

(28) - نفسه 1 / 296 .

والأدباء، واشتد التنافس بين العاصمة بغداد وعواصم الدويلات المستقلة في النشاط الثقافي والتألق الفكري، كما اشتد التنافس بين الحكام في إكرام العلماء والأدباء، كل منهم يريد أن يستقطب هذه الفئة أو تلك ليفاخر أمراء الأقطار الأخرى في ثروته العلمية والأدبية، وكان الأمراء والسادة أعمدة البنين الثقافي إذ حضروا مجالسه، وشاركوا في مناظراته، وأغدقوا الهبات على العلماء والأدباء الذين أحاطوا بهم في بلاطاتهم ومجالسهم، فتحولت حلب الحمدانية ومصر الفاطمية وبخارى السامانية وبغداد البويهية إلى مراكز للإشعاع الفكري والحضاري، وإلى مكاتب عامرة بالمؤلفات في شتى الفنون والعلوم والآداب، وقد حولها الخلاف المذهبي والحزبي وانتشار التصوف والفلسفة إلى أسواق رائجة للبحوث والمجادلات، أسهم كل ذلك في رفق النهضة الفكرية وخاصة في ميادين الشعر والأدب، وقد نبغ الكثيرون ممن يقفون شواهد على رقي العصر وحضارته الفكرية، وبلغ الأدب في عصر الرضي درجة عالية من الرقي لأن باب التنافس الذي فتح على مصراعيه بين عواصم الدويلات أسهم في النهضة الأدبية التي شهدها هذا العصر، وإن أمراء بني بويه لم يكتفوا بمنافسة الحمدانيين والفاطميين وغيرهم بل كانوا أدباء يتذوقون الأدب، ويحضرون مجالسه، ويشجعون رجاله، وقد أجاد بعضهم نظم الشعر وبرع آخرون في كتابة النثر، ذكر الثعالبي في بئمة الدهر أن عضد الدولة كان يتفرغ للأدب ويتشاعل بالكتب، ويؤثر مجالسة الأدباء على مناداة الأمراء " (29). وقد قصده المتتبي وأقام عنده ضيفاً كريماً، ومن أشهر مدائحه فيه:

مغاني الشعب طيباً في المغاني بمنزلة الربيع من الزمان (30)

ولم يكن الأدب في ذلك العصر وليد التشجيع أو احتضان السلطة له فحسب، بل كان الفقر كثيراً ما يدفع أصحابه إلى متابعة التحصيل والدراسة كي يبرعوا في

(29) - 2 / 195.

(30) - نفسه 2 / 195.

مبادئه، ويكون وسيلتهم في كسب العيش وارتقاء المناصب، وحمل الظلم كثيراً من عظماء الرجال وذوي العقول الراجحة أن يفروا من العمل السياسي إلى العمل العلمي لأنهم يجدون أن العمل السياسي يعرضهم لمصادرة أموالهم، وأحياناً إلى إزهاق أرواحهم، على حين أن العمل العلمي يحيطهم بجو خاص هادئ، ويبدو أن الخلفاء جعلوا للعلماء حرمة، ولم يتعرضوا لهم طالما لم يتعرض هؤلاء للسياسة مما أدى إلى قيامهم بأبحاثهم العلمية في هدوء وطمأنينة<sup>(31)</sup>. ومن أشهر الشعراء والأدباء في هذا العصر المتنبّي والرضي والمرتضى والمعري وأبو فراس الحمداني وابن العميد والصاحب بن عباد ومهيار الديلمي، وقد كان الرضي وأخوه على صلة وثيقة بأهل الفكر والأدب، وقد شاركا في النهضة الفكرية، وأسس كل منهما داراً للعلم ببغداد، ويشير شعر الرضي إلى مجالس الفكر التي كان يحضرها مع أصحابه، ولعلنا نجد فيه صورة عن ثراء الحياة الفكرية وألوان النشاط الثقافي في عصره، وهذا ماجسده في شعره الذي جاء لوحة ناطقة بما يجول في خفايا نفسه وزوايا مجتمعه، وقبل المضي مع الرضي في جماليات شعره يجدر بنا التوقف مع النماذج الجمالية التي يستند إليها البحث في رصد الظواهر لدراستها .

### العلاقة بين الفنان وفنه:

" درس المفكر الفرنسي شارل لالو الذي كان أستاذاً لمادة علم الجمال في السوربون بباريس هذه العلاقة دراسة مستفيضة في كتبه، فبعضها يحمل عنوان " الفن بعيداً من الحياة" وبعضها يحمل عنوان " الفن قريباً من الحياة"، وهو يحصر وجوه الاحتمال هذه في خمسة ضروب من العلاقات يدعوها بالعقد النفسية الفنية إذ هو متأثر ببحوث التحليل النفسي، وهي عقدة الهروب وعقدة الصناعة وعقدة الاقتصاد وعقدة التداوي بالمثل وعقدة الذاتية"<sup>(32)</sup>. ويرى الدكتور عبد الكريم اليافي أن

(31) - احمد أمين - ظهر الإسلام 1 / 96 .

(32) - الوجه الآخر للفنان ص 11 .

لفظ العقد لا يتضمن خفضاً ولا تقريضاً ولا إشارة إلى مرض نفسي أو غيره ، وإنما هو عبارة تقصد إلى التصنيف لأن صاحبها تأثر ببحوث فرويد كما تأثر بمدرسة دركايم الاجتماعية التي تدرس الظواهر من الخارج دراسة موضوعية، كما يجيز لنا أن نقول في مكان العقد نموذجات" وهذا لفظ أحدث لأنه يقابل في الوقت الحاضر ما يدعى في علم الاجتماع "موديلات" (33) .

وإذا بحثنا في دواوين الشعر العربي وأخبار الشعراء وجدنا الكثير من الأمثلة على ما سماه المفكر الفرنسي العقد النفسية الفنية، وقد أورد الدكتور عبد الكريم اليافي أمثلة كثيرة من الأدبين العربي والعالمي في مقالته عن الوجه الآخر للفنان، سائير إلى بعض هذه النماذج ، ثم أنتقل إلى الرضي لأبين ما في شعره منها. كان الشعر في رأي بعض الشعراء والنقاد صناعة تخضع لقواعد دقيقة صارمة في دقتها بحيث لا ينحرف عنها صناع الشعر إلا ليضيفوا إليها قواعد أخرى ما تزال تنمو مع نمو الشعر وتتطور مع تطوره (34).

ويبدو أن هذه الصناعة تحمل الأديب والشاعر والفنان أياً كان على توخي الإجابة مترسماً مراعاة الأحوال واقتضاء الصروف واتجاه الأرزاق دون الاهتمام بالواقع أو التقيد بالصدق (35). وكان الحطيئة يعنى بشعره وتجويده عناية شديدة، وقد أثر عنه أنه كان يقول: "خير الشعر الحولي المحكك"، وقد اتخذته حرفة تكفل له ما تكفل الحرف لأصحابها من ضرورات العيش، فراح يتكسب به، وفي ضوء هذا التكسب فهم وظيفة الشعر .

ولعل هذه الصناعة المتقنة كانت تحظى بإعجاب الناس جميعاً، وتمهد السبل أمام الشاعر لتحقيق غاياته، يروي الجاحظ في كتابه (البيان) أن عمر بن الخطاب رضي

(33) - نفسه ص 11 .

(34) - شوقي ضيف- الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص 14 .

(35) - د. اليافي - الوجه الآخر للفنان ص 11

الله عنه كان يقول: خير صناعات العرب أبيات يقدمها الرجل بين يدي حاجته (36)، وقد عرف الحطيئة الطريق إلى قلب هذا الخليفة العظيم، وترك شعره فيه أعظم الأثر فعفا عنا وأخرجه من سجنه، ولئن بالغ ابن قتيبة في نعتة بالبخل فإن الحطيئة غسل ثوب البخل بمدح الكرم، وقد استطاع ببراعته في شعره أن يصرف النظر عن صفاته الخلقية والخلقية إلى الإعجاب بشعره وإبداعه، ولعل قصيدته الميمية تأتي في طليعة ما أبدع الشعراء في وصف الكرم العربي.

وطاوي ثلاث عاصب البطن مرمل      ببذاء لم يعرف بها ساكن رسما (37)

ج

وقد بالغ الرواة أيضاً في اتهامه بفساد الدين، ولكننا نراه يحسن وصف النقي والعمل الصالح إذ يقول:

ولست أرى السعادة جمع مال      ولكن النقي هو السعيد  
وتقوى الله خير الزاد ذخراً      وعند الله للأتقي مزيد (38)

ويعجب النقاد بأبياته في وصف السعادة والنقي، ويحسب بعضهم أن الشاعر الذي كان فاسد الدين في البداية حسن إسلامه في النهاية، فيقول أبو عمرو بن العلاء: لم تقل العرب قط أصدق من بيت الحطيئة:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه      لا يذهب العرف بين الله والناس (39)

ونلمح فيما يدعوه (لالو) نموذج الاقتصاد تبايناً بين الشعر والواقع، وتبدو لنا " فجوة أخرى بين الفنان وفنه إذ يكتفي الفنان بأن يصور في فنه أموراً وأحوالاً وأفعالاً لم يعملها ولا زاو لها، ليس هروباً من الواقع، وإنما هو تحقيق في الفن لرغبات لم ينجزها الفنان بل اكتفى بتصويرها وعرضها، وكأن الفنان اقتصد فاقصر على القول

(36) - 101 / 2 .

(37) - الحطيئة الديوان ص 396 .

(38) - الأصفهاني - الأغاني 175/2 .

(39) - نفسه 2 / 173 .

أو الوصف دون الفعل<sup>(40)</sup>، فأبو العتاهية كان بخيلاً على نفسه وغيره مع يساره وكثرة أمواله وما كان ليصمت إذا رأى بخيلاً بل يهاجمه وينعى عليه حرصه وقلّة إنفاقه، ويحفل ديوانه بالزهد والحث على التحرر من رق المال مع أنه مستعبد له عاجز عن تحرير نفسه، وقد يلجأ الشاعر إلى أجواء خيالية يحلق فيها متناسياً واقعه هارباً من كدره محاولاً أن يحقق فيها معجز عن تحقيقه على أرض الواقع، فابن الرومي الذي ذاق مرارة الفقر، وعرف بؤس الحياة بكل ألوانه صور متع الحياة ومباهجها وألوان الجمال فيها، وقد دفعه حرمانه من طبيباتها إلى تصوير المآكل الشهية والموائد العامرة التي كانت حلاً جميلاً يمتعه، ويذيقه كل ما حرمه من أطيبها بالوهم، فالهروب من الواقع إلى عالم خيالي يحقق له أمنياته ويسكن تباريحه وإن كان لا يشفيه.

إن ماسلف ذكره من نماذج يجعل الأثر الفني بعيداً من حياة الفنان، أما النموذجان الباقيان وهما الندائوي بالمثل والذاتية فيصوران حياة الفنان أو يقربان منها. وهنا نستشف الوجه الحقيقي للفنان سافراً أو من وراء التحليل النفساني<sup>(41)</sup>، ولعل أول ما يتبادر إلى ذهن الباحث إذا درس نموذج الندائوي بالمثل مقولة أبي نواس:

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء ودائني بالتي كانت هي الداء<sup>(42)</sup>

على أن هذا النموذج سرعان ما يذكرنا بقصص الشعراء من أمثال الأعشى وديك الجن وشعراء الحب العذري وغيرهم، فديك الجن الذي قتل حبيبته أحس أنه أنهى حياته بيده، بقي شهراً بلا طعام أو شراب إلا ما يسد رمقه، وكأنه كان يسعى إلى قتل نفسه مادياً بعد أن قتلها معنوياً، وهو إذ لا يفارق الحياة يستمر في تعذيب نفسه وقتلها، فيصنع من ذرات الجسد المطعون كوزاً<sup>(43)</sup> ومن دمائه خمراً، ويغيب عن

(40) - د. اليافي - الوجه الآخر للفنان ص 17.

(41) - د. اليافي الوجه الآخر للفنان ص 22.

(42) - ابن الرومي - الديوان ص 7.

(43) - العاملي الكشكول ص 98.

الوعي كلما رشف دماء الخمر القانية من ذرات الجسد الذي يستعذب أن تلهب شفثيه بذكرى الألم والفجيرة، فيقتل نفسه كل ليلة انتقاماً منها وتشفياً، وإذا كان أبو نواس يستقي الدم من جوف الدن المجروح، وتصبح الخطيئة الضرورية الممجة عنده ضرورة كيانيه لأنها رمز الحرية، رمز التمرد والخلص فإن هذه الخطيئة تتقلب عند ديك الجن إلى جريمة ممجة. وضرورة كتوكيد أعلى ومطلق للحرية والشرف<sup>(44)</sup>.

ونلمح مظاهر النموذج الأخير عند نفر من الشعراء، فعمر بن أبي ربيعة القرشي المدلل والثري الجميل هو أمل الجميلات الذبيلات وغاية العاشقات الحسنات والمحور الذي يدور حوله شعر الحب العمري، فقد تبدلت الأدوار بين المرأة والرجل في هذا اللون من الغزل، فعمر هو المعشوق المزهو، والمرأة هي العاشقة المولهة، يملؤه التيه بنفسه فيتحول قمراً يضيء قلوب النساء، ويشغل بال الأخوات :

يقول:

قالت الكبرى أتعرفن الفتى قالت الوسطى : نعم هذا عمر

قالت الصغرى وقد تيمتها قد عرفناه وهل يخفى القمر<sup>(45)</sup>

ويبلغ عشق الذات ذروته في حياة المتنبّي وشعره، فإذا مدح توحد بالممدوح أو نسيه في غمار حب الذات الذي يتعانق فيه الخيال والواقع، ويتحد فيه الشعور واللاشعور وإن كان الممدوح مثله الأعلى سيف الدولة الحمداني لأن المتنبّي لم يكن كغيره من الشعراء داعية لغيره بعيداً عن الفعل رغم تغنيه به، بل كان داعية لنفسه، فهو حين يمدح لا يمدح ممدوحه فحسب بل يتحدث عن ذاته في الوقت نفسه، وفي هذا التوحد يرى مثله الأعلى لاجتماع الأمير والفارس والشاعر في شخص واحد، ففي قصيدته اللامية يمدح سيف الدولة قائلاً:

(44) - أدونيس - مقدمة للشعر العربي ص 53.

(45) - شوقي ضيف - العصر الإسلامي ص 352

فدتك ملوك لم تُسمّ مواضياً      فإنك ماضي الشفرتين صقيلُ  
إذا كان بعض الناس سيفاً لدولةٍ      ففي الناس بوقات لها وطبول  
وفجأة ينتقل إلى ذاته فيقول:  
أنا السابق الهادي إلى ما أقوله      إذا القولُ قبل القائلين مقولُ  
ثم يعود إلى سيف الدولة مرة أخرى قائلاً:  
فتيهاً وفخرأ تغلب ابنة وائل      فأنت لخير الفاخرين قبيل(46)  
ولذلك قال أدونيس: المتبني يفرز نفسه ويعرضها عالماً فسيحاً من اليقين  
والثقة والتعالي في وجه الآخرين وضدهم، وهو في ثنايا شعره كله يحتضن ذاته  
ويناجيها، ويحاورها بنبرة من العبادة(47).

وإذا كنا قد أشرنا إلى هذه النماذج عند بعض الشعراء فإن هذا لا يعني أن يختص كل  
شاعر بواحد منها أو يتوزع شعره بينها كلها، إن هذه النماذج الخمس قد تكون  
مشتبكة في شعر الفنان وقد تكون منفردة، أو يكون بعضها موجوداً دون بعض، فما  
الذي نجده في شعر الشريف الرضي؟.

### النماذج الجمالية في شعر الشريف الرضي:

#### نموذج الاقتصاد:

أي أن يكتفي الفنان أو الشاعر في فنه أو شعره بأن يصور أموراً وأفعالاً لم  
يعملها ولا زاولها. ليس ذلك هرباً من الواقع ، وإنما هو تحقيق لرغبات لم ينجزها  
الشاعر بل اكتفى بتصويرها وعرضها، وكأن هذا العرض والتصوير ينوب عن العمل  
والجهد في بلوغ المآرب المرجوة والمقاصد المتخيلة، الفن هنا يفتقد الجهد، وكذلك  
القول والشعر يحل محل العمل والتعب.

كان الشريف الرضي يطمح إلى سدة الخلافة بل يرى نفسه أحق بها من غيره

(46) - محمد زكي العشماوي- موقف الشعر من الفن والحياة ص255

(47) - أدونيس - مقدمة للشعر العربي ص 55.

من الخلفاء بالنظر إلى نسبه وعلمه وبلاغته، ففي هذه الأمور مزايا تخوله إياها، ولكن الظروف التاريخية والصروف الاجتماعية والعسكرية تحول دون بلوغه إليها، ودون أن يطوق بها على خلاف الخلفاء العباسيين. وبدلاً من التثديد بالاضطراب المتفشي في الدولة العباسية والفساد المنتشر في البلاد نراه لا يعمد إلى المناداة بالإصلاح أو العدالة الاجتماعية إلا قليلاً، ولا يبدأ بالدعوة إلى تغيير الواقع أو الثورة عليه، بل يكتفي بأن يحمل الحكام مسؤولية ما يجري، وأن يشن غارات شعرية بليغة في شعره، ويتوهم فيها بلوغ النجاح<sup>(48)</sup>، يقول:

كَبَا الدَّهْرُ بَيْنِي وَبَيْنَ الْمَنَى      وَطَالَ بَزْنَدِ الرَّجَاءِ اقْتِدَاحِي  
 آمال الشاعر وطموحاته كثيرة، ولكن الدهر لا يسعفه في تحقيقها، فهو يشكو من تباطؤ الدهر في تحقيق آماله، وإنه ليدفعه إلى اليأس من الوصول إلى سدة الخلافة مع أنه لا يرى أحداً يساميه في الفخر ويطاوله، فهو حفيد النبي والأئمة الأخيار الذين رفعوا لواء الحق، وأبلوا في سبيله، وقدموا أرواحهم لنصره الإسلام وتحقيق العدالة:

فَمَنْ ذَا أُسَامِي، وَجَدِي النَّبِيُّ      أَمْ مَنْ أَطْلَوْلُ أَمْ مَنْ الْأَحْي  
 أَنَا ابْنُ الْأُئِمَّةِ وَالنَّازِلِينَ      كُلُّ مَنْبَعِ الرَّبِيِّ وَالْبَرَّاحِ  
 وَأَيْدٍ تَصَافِحُ أَيْدِي الْكِرَامِ      وَإِنْ نَفَرْتُ مِنْ أَكْفِ الشَّحَّاحِ  
 إِذَا اسْتَصْرَخُوا عَصَفُوا بِالصَّبَّابِ      حَ بَيْنَ الطَّبِيِّ وَالْوَجُوهِ الصَّبَّاحِ  
 وَسَلُّوا إِلَى الطَّعْنِ سَيْلَ الْقَنَّا      وَمَالُوا عَلَى الضَّرْبِ مِيلَ الصَّفَّاحِ  
 نَشَرْنَا عَلَى عَذَّبَاتِ الرِّيَا      حَ كُلُّ لَوَاءٍ صَقِيلِ النَّوَاحِي  
 وَأَحْسَابُنَا سَامِيَاتُ الْأَنْوَفِ      بَيْنَ الْمَقَامِ وَبَيْنَ الضَّرَّاحِ<sup>(49)</sup>

لاغرو أنه يفخر بحسبه في مواضع عدة من ديوانه، ويعلن عن إحساسه بالتفوق على معاصريه، وعن حقه بالخلافة، ولكن العجب يبدو من ثورته التي لا

(48) - د. اليافي - الوجه الآخر للفنان - ص 21 وقد درس اليافي هذه العقدة من خلال النص نفسه.

(49) - الشريف الرضي الديوان 1 / 248 - 250 الضراح: البيت المعمور في السماء الرابعة.

تتجاوز حدود الكلام، فهو يرغب في تحقيق أمانيه، ويحاول إدراك مرامه، فيقارع الفساد على توالي الأيام والأعوام، ولكن ذلك كله يحصل في أحلامه إذ لا نجد منه شيئاً يتحقق على صعيد الواقع:

نبهتُهم مثلَ عوالي الرماحِ إلى الوعى قبلَ نُوم الصَّبَّاحِ  
فوارس نالوا المنى بالقننا وصافحوا أعراضهم بالصِّقَّاحِ  
لغارةٍ سامعُ أنبائها يغصُّ منها بالزلال القِّقَّاحِ  
ليس على مُضرمها سُبَّة ولا على المُجلب منها جُنَّاحِ  
ويصف معترك الحرب ويغري بالغنم فيها، ويستنهض هم أتباعه كي يثوروا

رافضين الذل ساعين إلى المجد:

دونكم فابتدروا غنمها دُمى مباحاتٍ ومالٍ مُباحِ  
فإننا في أرض أعدائنا لا نطأ العذراء إلا سيفاحِ  
ثم يشير إلى همومه التي تثير همته، فإن الهم والهمة في اللغة من جذر واحد

يعني الحركة والانتقال والقصد، ولا بد في ذلك من تلقي الأذى دون بلوغ المنى:

يانفسُ من همٍ إلى همّةٍ فليس من عبء الأذى مستراحِ  
قد أن للقلب الذي كده طول مناجاة المنى أن يراحِ  
لابد أن أركبها صعبةً وقاحةً تحت غلام وقاحِ

ثم يرى في هذه الثورة كأن الأرض قد زلزلت، والناس قد فاجأهم الطعن الصراح في أوائل الصباح، ويتمنى أن يرى سيول الدماء المتدفقة فوق بغداد تفوق سيول البطاح غزارة وانهماراً:

متى أرى الأرضَ وقد زُلزلت بعارضٍ أغبرَ دامي النَّواحِ  
متى أرى الناسَ وقد صُبحوا أوائلَ اليوم بطعنِ صُراحِ  
يلتفتُ الهاربُ في عطفه مُروعاً يرقبُ وقعَ الجراحِ

متى أرى البيضَ وقد أمطرت سِيلَ دمٍ يغلبُ سِيلَ البطاح  
 وربما كان يتذكر قول المتنبي في إشارته البليغة إلى غفلة الحكام العباسيين  
 ولهوهم وتقاعسهم عن الإصلاح، وعن أطماع الطامعين مشيداً بسيف الدولة الذي كان  
 يقاوم البيزنطيين ويردهم عن الثغور الإسلامية، فيعمد الشريف إلى التثديد بهم وترقب  
 مصارعهم وتصدع شملهم في تلك الثورة الخيالية:

متى أرى اللَّيْضَةَ مَصْدُوعَةً      عن كلِّ نَشْوَانٍ طَوِيلِ المِرَاحِ  
 مضمخَ الجيدِ نَوْمِ الضُّحَى      كأنَّهُ العِذْرَاءُ ذاتُ الوِشَاحِ  
 إذا رداخُ الرُوعِ عَنَّتْ لَه      فَرَّ إلى ضَمِّ الكَعَابِ الرِداحِ  
 قَوْمٌ رَضُّوا بالعِجْرِ واستبدلوا      بالسيفِ يَدْمَى غَرْبُهُ كاسَ راحِ  
 توارثوا الملكَ ولو أنجبوا      لورثوه عن طعانِ الرماحِ  
 غَطَى رداءُ العِزِّ عوراتِهِم      فافتضحوا بالذُّلِّ أيَّ افتضحِ  
 فارمِ بعينيك ملياً ترى      وقع غباري في عيونِ الطَّلَاحِ  
 وارقْ على ظُلعك هيهاتَ أن      يُزعزعَ الطودُ بمرِّ الرياحِ  
 لاهمَّ قلبي بركوبِ العُلَى      يوماً ولا بَلَّ يدي السَّمَّاحِ  
 إن لم انلها باشتراطٍ كما      شئتُ على بيضِ الطُّبَى واقتراحِ  
 أفوز منها باللبابِ الذي      يُغني الأمانِي نَيْلَه والصُّراحِ  
 وخطةٌ يضحك منها الردى      عسراءُ تَبْرِي القومَ بَرِّي القِداحِ  
 صبرتُ نفسي عند أهوالِها      وقللتُ: من هبوتِها لا بَراحِ  
 إما فتى نال العلى فاشتقى      أو بطلٌ ذاقَ الردى فاستراح<sup>(50)</sup>

إنها لوحة كاملة للثورة التي تقود الشاعر إلى تحقيق النصر وبلوغ الأمان،  
 ثورة يعيشها الشاعر بكل أحاسيسه ومشاعره، ويرسم تفاصيلها فيوهم سامعه أنها ثورة

(50) - الشريف الرضي - الديوان 1 / 452-456. وردت في الديوان : مباحات، سفاح.

حقيقية سلك الشاعر فيها درب أجداده، وماهي إلا ثورة خيالية جسدها في لوحة فنية متكاملة جميلة.

إذا أطلت بذكر هذه الأبيات من تلك القصيدة الطويلة فلكي أتابع خلجات نفس الشاعر في هذا الخيال الحربي الممعاني دون أن يتجاوز اللفظ المختار إلى أوار الواقع الذي يكاد يشرف على التداعي والانهيار، إنها ثورة بقيت في إطار الأمنيات، ولم يقرن الشاعر قوله بفعله ولعله أثر السلامة ووجد في تاريخ أجداده عظة، فاكتفى بثورته الخيالية لكن بيانة الشعري الذي يجسد تلك الثورة بلغ في هذا النص قمة الإبداع والروعة، ولو أنه انتقل إلى حيز الثورة الفعلية لكان له من شعره خير معين في إثارة الجماهير ودفعها إلى أتون المعركة. ويقول في قصيدة أخرى ليست أقل وعيداً وتهديداً من القصيدة الأنفة:

ماضرتنا أننا بلا جِدة	والبيتُ والركنُ والمقامُ لنا
وهمةٌ في العلاءِ لازمةٌ	تُلزمُ صُمَّ الرماحِ أيدينا
نأخذُ من جُمةِ العلى أبدأً	ما أخذَ الضربُ من جماجمنا
سوفَ ترى أن نيلَ آخرنا	من العلى فوقَ نيلِ أولنا
وأنَّ ما بَرَّ من مقادينا	يُخلفُه الله في عقائنا
ذلكَ وردَ قذى لسابقنا	والآنَ يُجلى القذى للاحقنا
لأوقرنَّ الركابَ سائرةً	عزماً يكدُّ الأبدانَ والبُدنا
حتى تهاوى من اللُغوبِ وتـ	ستتجدُّ بعدَ المناسمِ الثُّغنا
لأبلغُ العزَّ أو يقالُ فتى	جَنَّتْ عليه يَدُ الردى وجنى (51)

يؤكد الشاعر حقه في الخلافة، وإصراره على بلوغها أو يموت دونها، ولكن أين ثورته في الواقع ؟ وقد ملأت هذه الأمانى نفس الشاعر في سن مبكرة:

(51) - نفسه 2 / 531 البدن: الواحدة بدنة هي كالأضحية من الغنم .

سـتـعلمون مـا يـكون مني إن مدّ من ضبعيّ طولُ سني  
ودفعه طموحه الكبير إلى الخروج من إهاب جلده الغض ليعلن ثورته، وينذر  
مجتمعه، ويتوعدّه بما تخبئه له الأيام:

جُننت بأساً والشـجـاعُ جني  
أثارَ طعنَ الدهرِ في مجني  
يشهدُ لي أنّ الزمانَ قرني  
سـوف تـرى غبارها كالـدجن  
قساطلاً مثلَ غوادي المزن  
تجري بضربِ صادقٍ وطعن (52)

واستمر الشاعر في معاركه الخيالية حتى أواخر حياته، ولكنه خرج عن خط  
أجداده وآثر الحياة على الشهادة، والتفيس عن ثورته الداخليه بالشعر، واعتلاء سدة  
الخلافة بالخيال، ولعل الحكام كانوا يعرفون ذلك حق المعرفة، يعرفون أنه لن يتجاوز  
الثورة الخيالية ولن يخوض معركة حقيقية ولذلك غفروا له، وقلدوه مناصب تخفف من  
غضبه وثورته، فالطموح السياسي الذي وجدناه بركناً متفجراً في شبابه لم يهدأ في  
شيخوخته، فما عجز الشباب عن فعله هل تستطيع الشيخوخة تحقيقه؟ يصوره في  
قصيدة جميلة يقول فيها:

ولولا الجوى لم أبغ إلا مُدامةً  
إذا سكرَ العسلُ من قَطراتِها  
ولي أملٌ لا يبدُ أحملُ عبئه  
وكل رعود الشفرتين كأنه  
بطعن القنا إبريقها الودجان  
سقيتُ حمّاهَا أغرَ يماني  
على الجرد من خيفانةٍ وحِصان  
سنَى البرقِ إمّا جدّ في اللمان  
حسامي ولا روى الطعان سناني (53)

(52) - نفسه 2 / 533 المجن: الترّس

تشغل هذه الغارات بال الشاعر على الدوام، ولذلك تجده ماينفك يحتفظ بسيفه حتى ليلة الوصال، يحتفظ به في كل الأحوال، ويجعله الأقرب إلى جسده لأنه رمز لما يشغل باله، ولذلك ترى هذا الأبيض الماضي يبعد البيضاء الحسناء عن صاحبه كلما اقتربت منه :

تضاجعني الحسناءُ والسيفُ دونها      ضجيجانِ لي والسيفُ أناهما مني  
إذا دنتِ البيضاءُ مني حاجةً      أبيضُ الماضي فأبعدها عني  
وإن نامَ لي في الجفنِ إنسانٌ ناظرٍ      تيقظُ عني ناظرٌ لي في الجفنِ  
أعرتُ فتاةَ الحي مما ألفتُه      أغلغله دونَ الشعارِ من الضنِّ  
وقالت: هبوه ليلةَ الخوفِ ضمُّهُ      فما عذُرُه في ضمِّه ليلةَ الأمنِ (54)

لئن كان السيف الماضي يبعد الحسناء في النص السابق فإن اللقاء في نص آخر يتلاقى فيه القتال والعناق، فالخد ميدان، وخيول اللثم تجول فيه وتصول:

ربَّ بدرٍ بتُّ أثلُمهُ      صاحياً والبدرُ نشوانُ  
قدتُ خيلَ اللثمِ أصرفُها      حيثُ ذاك الخدُّ ميدانُ (55)

تلك معاتبة شاعر يقفو أثر شاعر سبقه، فقد قال امرؤ القيس في قصيدة غزلية:  
أيقنتني والمشرفي مُضاجعي      ومسنونةً زرقاً كأنيابِ أغوال (56)  
ويقول عنتره: وسيفي كالعقيقة وهو كمعي (57)، أي ضجيجي الذي يلازمي.

فالشريف الرضي يأخذ الفكرة ويوسعها كما يوسع الموسيقار فكرة موسيقية سبقه إليها أحد قبله، يوسعها في متنوعات على اللحن.

(53) - الشريف الرضي - الديوان 2 / 523 الودجان، الواحد ودج: عرق في العنق ينتفخ عن الغضب

-خيفانة : الجرادة ، شبهت بها الفرس لخفتها.

(54) - نفسه 2 / 484.

(55) - نفسه 2 / 505.

(56) - الديوان ص33. الغول في لسان العرب : الحية .

(57) - الديوان ص76. العقيقة: شعاع البرق ومنه قيل للسيف: كالعقيقة، والكمع والكميع: الضجيج وتمامه: سلاحي لأقل ولا فطارا ، وأراد به الملازم.

يكاد في الواقع يشعر بوحدته في طلب العلى ونيل ما يرومه، فهو يسمع بخبر نجاح الموفق بالله أبي علي وزير بهاء الدولة حين تغلب على الخارجين على الحكم في فارس، ووطد دعائم الدولة حتى لقب عمدة الملك، فهو يهنئه بظفره، ولكنه في آخر قصيدته يستعطفه ويستعينه في الوصول إلى مأربه، فيقول مستشفعاً:

فِرْشَنِي أَكُنْ لَكَ سَهْمَ النَّضَالِ      وَاغْصَبْ عَلَيَّ يَدِي مَنَ بَرَانِي  
وَحُكِّي لِي بُرْدَ الْعُلَى ضَافِيًا      أَحُكُّ لَكَ أَمْثَالَهُ مِنْ لِسَانِي  
إِذَا كُنْتَ عَوْنِي فَمَنْ ذَا الَّذِي      يُتَبَطَّنِي عَنْ بُلُوغِ الْأَمَانِي  
وَأَنْتَ الزَّمَانُ وَأَنْيَ يَخِي—      بٌ مِنْ كَانَ مُسْتَشْفَعًا بِالزَّمَانِ<sup>(58)</sup>

إنه شاعر لا يلد له بالثورة والعراك، ولكن اللطف والمواساة والإكرام والإجلال من قبل الخليفة تكفيه حتى يعلن عن أحقية العباسيين بالخلافة، لقد أكرمه الخليفة الطائع لله في سنة 380 هـ وقلده النقابة، ورتبه في رتبة أبيه، وخلع عليه خلعاً سنوية، وتناهى في إكرامه، فقال يمدحه وكأنه نال مراده لهذا الإجلال والتكريم، وجاء في قصيدته:

مَلَكًا بَنِي الْعَبَّاسِ، فَالرَّاءِ      جِي مَقَامِكُمْ غَبَّيْنُ  
أَنْتُمْ لَهَا إِنْ هَابَ خُ—      طَّتْهَا جِبَانٌ أَوْ ظَنَّيْنُ  
ثُمَّ يَخَاطِبُ الْخَلِيفَةَ فَيَقُولُ:

لَكَ ذُرُوءَ الْبَيْتِ الْمَعْمُ—      ظَمَ وَالْأَبَاطِحُ وَالْحَجُّونُ  
أَتُرَى أَمِينًا اللَّهُ إِلَهِي      لَا مَنَ لَهُ الْبَلْدُ الْأَمِينُ  
وَالْأَمْرُ أَمْرُكَ لَا فَمَّ—      يُوحِي وَلَا قَوْلٌ يُبَيِّنُ<sup>(59)</sup>  
هدأت نفس الشاعر في هذا النص وتخلت عن ثورتها العارمة التي نطقت بها

(58) - الشريف الرضي الديوان 2 / 495

(59) - نفسه 2/525-526 . الأباطح : أي بطاح مكة ، الحجون : جبل بمحلة مكة . أمين وردت في الديوان - أمين

نصوصه السابقة، وكانها حققت المراد في بلوغ المنى، وما هذه المنى إلا تقليد النقابة وإكرام الخليفة للشاعر وتواتر إحسانه عليه.

### نموذج الذاتية:

يبدو هذا النموذج خاصة لدى الشاعر القرشي المشهور عمر بن أبي ربيعة الذي كان يتحدث في شعره عن مغامراته الغزلية، وعن تتبعه للجمال الأنثوي وهيامه به، وولوع الغواني الحسان بشعره، وولوعه بلقائهن ولا سيما في موسم الحج لعله يلقي من يحب لقاءها من الحسان أو يلقي وجهاً صبيحاً أو مقلة حوراء فانتة من اللواتي لم يحجن يبيغن أداء الفريضة أو مثوبة من الله، ولكنهن خرجن ليعرضن عن قصد أو غير قصد بهاءهن الساحر ويقتلن البريء المغفل قال:

قامت تراءى بالصفاح كأنما عمداً تريد لنا بذاك ضرارا  
كالشمس تعجب من رأى ويزينها حسباً أعر إذا تريدُ فخارا (60)

هنا نحن مع الشريف الرضي الذي يرجع نسبه الشريف المزدوج إلى الحجاز أي إلى ربوع ذويه وأجداده مواطن المجد والفخر والسودد، ولقد كانت مواسم الحج في العصر الذهبي للحضارة العربية الإسلامية متألفة زاهية رائعة. كانت مواسم أعياد أو على الأصح عشيات أعياد فيها زينات وأفراح ومباهج مع التقى والاحتشام كل الاحتشام، ومع ذلك في إبان القيام بالفريضة وأداء المناسك كانت تلوح ملامح جمال ومفاتن حسن تأخذ بالألباب، وتسكر القلوب من حسان فانتات رائعات تفوق فتنتهن رقة الطباء السانحات في تلك الربوع المباركة. هنا مجال الشعر واسع، وهو ألصق بالواقع، فإذا كان الشاعر بليغاً، وتجول في صدره مشاعر الحب والصبابة، وهو أمير في عمله الرسمي وفي مرافقته موكب الحجاج، ويطوف في الأماكن الحجازية المشهورة البديعة والمقدسة فلا بد من أن تفيض تلك المشاعر ويتسع لها لسانه العبقري، وهذه هي مزية طائفة كبيرة من أشعار الشريف المدعوة بالحجازيات

(60) - عمر بن أبي ربيعة الديوان 1 / 117

وبالملاحظات بالحجازيات، تتصف كلها على خلاف لغات الغارات الخيالية التي عرضنا بعضها آنفاً، تتصف بالعدوية والرقّة والسهولة والحنين والحب حتى إنها تمثل ذروة في هذه الصفات بين أمثالها في تاريخ الشعر العربي وتراثه الحافل المجيد. ولا بد من الاستئناس ببعض القطع التي تحفل بلاغة وعدوية وبهجة ورقّة ورشاقة ورهافة في الشعور وفي البيان، فهو يتغنى أجمل غناء بمشاعره، ويتقن في عرض الصور الجمالية في تلك الربوع الزاهية التي كثيراً ما يذكر أسماءها حباً لها، وتذكراً لإمامه بها، وتلميحاً بما لاح من محاسن إنسانية لاتنسى لنستمع إلى مطلع هذه القصيدة وجزء من أبياتها:

أسلُ بدمعِك وادي الحيّ إن بانوا	إن الدموعَ على الأحزان أعوانُ
لاغْدَرَ بعد تنائي الدار من سكنٍ	لمُدعي الوجد لم يدمع له شان
حي الطوالع من نجد تصونهم	عن النواظر أنماط وكيران
رموا جيوب المطالي عن ميامنهم	وشيحة الحزن يسراهم ونجران
سارت بقلبك في الأحشاء زفرته	واستوقفتك بأعلى الرمل أظعان
لما مررنا على تلك السروب ضحى	نضت إلى الربيع أجياداً وأعيان
من كل غيداء قد مال النعيمُ بها	كما تخايلَ بالبردين نشوانُ
كأنما انفرجت عنهم قبابهم	يوم الأنيعم آجالٌ وصيران
مستشرفات يُعرضن الخدود لنا	كما تشوّف صوبَ المزن غزلانُ
لايذكر الرملُ إلا حنّ مغتربُ	له بذّي الرمل أوطارٌ وأوطان (61)

(61) - الشريف الرضي الديوان 2 / 448-449 الشان : مجرى الدمع - الأنماط ج نمط : ثوب يطرح على اليهودج - الكيران ج كور : الرجل - الجيوب ج. جيب : مداخل الأرض - المطالي ج مطلى أو مطلاء : مسيل ضيق من الأرض - الشيحة : ماءة شرقي فيد بحلب- نجران : اسم لعدة مواضع - السروب ج سرب : الطرق - نضت : سبقت - الأنيعم : موضع - الأجال ج إجل : القطيع من بقر الوحش - الصيران ج صوار : القطيع من البقر .

ولقد يتاح له أن يمر على ديار أحبابه وكانوا قد نزحوا منها، ولكنه يتذكر أيامه معهم فيها، فيصور كيف يتوقف فيها ملياً، ثم إذا أرف موعده السير يتلفت نحوها بعينيه طوال إبصاره لها حتى إذا غابت عن ناظريه تلفت قلبه نحوها:

ولقد مررتُ على ديارهمُ      وطلولها بيد البلى نهبُ  
فوقفتُ حتى ضجَّ من لغبٍ      نِضوي ولجَّ بعذلي الركبُ  
وتلفتتُ عيني فمُدَّ خفصيتُ      عنها الطلولُ تلفتَ القلبُ (62)

إنه تلفت تزيدي براعته البلاغية على كلام كثير من الشعراء الذين وقفوا في الطلول وساعلوها وحدثوها وتذكروا أحبابهم فيها. وقد يلقي ركباً آيباً من الجنوب فيسألهم عن أحبابه هنالك بالأبرقين يستاف بعض أخبارهم ويتنكر حبه الدائم لهم على القرب وعلى البعد، كما يتذكر قلة الوصال التي مازال قلبه يذوب لتذكارها، كما يتذكر قصر اللقاء خوف الرقيب:

ألا أيُّها اليركبُ اليمانون عهذكم      على ما أرى بالأبرقين قريبُ  
وإن غزالاً جُزتمُ بكناسيه      على النأي عندي والمطال حبيبُ  
ولما التقينا دلَّ قلبي على الجوى      دليلان: حسنٌ في العيون وطيبُ  
وهل ينفعني اليوم دعوى براءة      لقلبي ولحظي يا أميم مريبُ  
وأنهلني في القعب فضلُ غبوقه      خليطان: ريقٌ باردٌ وضريبُ  
ولو نفضت تلك التبيات بردها      على الصبر الممرور كاد يطيبُ  
فيا برد ماءٍ ذاب ما ذيق برده      بلى إن لي قلباً عليه يذوبُ (63)

ويتفنن في الغزل، وغالباً يقع له إحسان في الجنس تهيئه همومه في الحب على البعد وأشجانه في القرب:

(62) - نفسه 1 / 181 اللغب : التعب - النضو : البعير المهزول  
(63) - الشريف الرضي - الديوان 1 / 179 القعب : القدح - الضريب : العسل - الصبر : عصارة شجر مرّ

ياريمَ ذا الأجرع يرعى به      ثمارَ قلبي بادل الرطبِ  
 هناكَ شربُ الدمع من ناظري      يأمُشُرقي بالباردِ العذبِ  
 أنتَ على البعد هُمومي إذا      غبَّتَ وأشجاني على القُربِ  
 لا أتبعُ القلبَ إلى غيركُم      عيني لَكُم عينٌ على قلبي<sup>(64)</sup>

تبدو براعة الشاعر في صياغة شعره جليبه واضحة ، ففي البيت الأخير تتعانق ألوان الجناس الازدواجي والسجعي والتام والناقص مع التكرار والتقسيم ، وتترأى لفظة العين في ثوب الخيال إذ تحولت إلى رقيب يحصي على الشاعر دقائق قلبه ، ويرصد دوافع وجيبه ، فالعلاقة اللفظية في البيت منبع إشعاع لعلاقات معنوية تنقل حالة الشاعر الشعورية والذاتية بصدق ، وهاتات العلاقتان تبرزان في حلي موسيقي يتلاقى فيه جرس الحروف المتكررة في توازن وانسجام وتناغم جميل مع الوزن والإيقاع .

إن متاع الشاعر أيام الحجيج باللقاء القصير كالبرق، وبالمواعيد الغامضة، وبالصبر وبالمدامع غداة سفر الأحباب، واللقاء في هذا النص كان مع ثلاث حسناوات لا واحدة:

ألا يا ليالي الخيف هل يرجعُ الهوى      إليكنَّ لي ؟ لا جازكنَّ ندى القَطْرِ  
 فـيا دينَ قلبي من ثلاثٍ على منى      مضينَ ولم يُيقينَ غيرَ جوى الذكْرِ  
 ورامينَ وهناً بالجِمارِ وإنما      رمواً بين أحشاء المحبينَ بالجمْرِ  
 رموا لا يبالون الحشى وتروحوا      خـليينَ والرامي يصيب ولا يدري  
 وقالوا: غداً ميعادُنا النَّفْرُ عن منى      وما سررتي أن اللقاءَ مع النَّفْرِ  
 ويا بؤسَ للقُربِ الذي لا ندوقُه      سوى ساعةٍ ثم البعادُ مدى الدهرِ  
 فـيا صاحبي إن تُعطَ صبراً فإنني      نزعْتُ يديَّ اليومَ من طاعةِ الصَّبْرِ

(64) - نفسه 1 / 179 العين : الجاسوس

وإن كنت لم تدر البُكا قبلَ هذه فمبعأُ دمع العين مُنقلب السَّفرِ (65)  
ويتذكر لقاء في أول الليل بذي النقا وكانت العشية باردة، فأوقدت الحبيبة النار  
للدفاء بالعود الطيب الرائحة، فإذا خمدت النار بدا للشاعر ضوء حسن الحبيبة  
أزهى من ضوء النار كما بدا له تألق سوارها الذهبي، والشاعر يريد بالحبيب  
الحبيبة، وكثيراً ما كان الشعراء يستعملون لفظ المذكر وهو الحبيب بدلاً من التأنيث:  
أَيُّ عِيدٍ مِنَ الْهَوَى عَادَ قَلْبِي      بَعْدَمَا جَعَجَعَ الدَّجَى بِالرَّكَبِ  
لَوْ دَعَانِي مِنْ غَيْرِ أَرْضِكَ دَاعٍ      لَغَرَامٍ لَكُنْتُ غَيْرَ مُلْبِي  
أَيْنَ ظَبِيٍّ بَدَى النِّقَا يُوقِدُ النَّا      رَ عِشَاءً بِالْمَنْدَلِي الرَّطْبِ  
كَلَمَا أُخْمِدَتْ زَهَاها بِضَوْءِ الْـ      حُسْنٍ مِنْ جِيدِهِ وَضَوْءِ الْقَلْبِ (66)

وهو إذا تغزل فغزله للفن لا لغاية أخرى، غايته النسيب فهو يقول:

وماليَ يالمياءُ بالشعر طائلٌ      سوى أن أشعاري عليك نسيبٌ (67)  
وما أكثر الوعد الخلب على لسان الحسان:  
وَشَمَمْتُ فِي طَفْلِ الْعِشِيَّةِ نَفْحَةً      حَبَسْتُ بَرَامَةً صُحْبَتِي وَرِكَابِي  
مَتَمَلِّمِينَ عَلَى الرَّحَالِ كَأَنَّمَا      مَرَّوْا بِبَعْضِ مَنَازِلِ الْأَحْبَابِ  
نَكَرْتُ لِي الْأَرْبَ الْقَدِيمَ مِنَ الْهَوَى      عَهْدَ الصَّبَا وَلِيَالِي الْأَطْرَابِ  
فَبَعَثْتُ دَمْعِي ثُمَّ قُلْتُ لِصَاحِبِي:      إِيهِ دَمَوْعَكَ يَا أَبَا الْغَلَابِ  
فِي سَاعَةٍ لَمَّا التَّقْتُ إِلَى الصَّبَا      بَعُدْتُ مَسَافَتُهُ عَلَى الطَّلَابِ

(65) - نفسه 1 / 511 تُعْط: هكذا وردت في الديوان، والصحيح ما أثبتناه.

(66) - الشريف الرضي - الديوان 1 / 178 جمع: صوت، المنذلي: عود طيب الرائحة حينما يوقد.  
القلب: وردت في الديوان القلب والصحيح ما أثبتناه، نرى أن الشاعر يريد هنا السوار بضم القاف،  
فالسوار يمتص النور ويعكسه فيبدو متألقا بديعاً. وقد حسب المحقق أن الشاعر يريد ضوء القلب أي  
الفؤاد.

(67) - نفسه 1 / 175

وتأرجتُ منها ذلائلُ رِيْطِتي حتّى تعارفَ طيبيها أصحابي (68)  
ولا نكاد نقف عن الاستشهاد بالحجازيات دون أن نورد هذه القطعة التي  
تجمع بين المتناقضين وهي الأمواه والنيران في مدامع المحب وأحشائه، وفيها من  
متاع الإيقاع وحنان القافية وزينها ما فيها:

يا روضَ ذي الأثلِ من شرقيّ كاظمةٍ قد عاودَ القلبَ من ذكراكَ أديانا  
أمرّ بالركبِ مجتازاً بذِي سلمٍ لوّما شريتكَ بالأوطانِ أوطانا  
شغلّت عيني دُموعاً والحشى حُرّقا فكيفَ ألفتَ أموها ونيرانا  
أشمّ منكَ نسيماً لستُ أعرفُهُ أظنّ ظمياءَ جرّتَ فيكَ أردانا  
ألقاكَ والقلبُ صافٍ من رجيعِ هوىٍ وأنتني عنكَ بالأشواقِ نشوانا  
يقولُ صحتي وقد أعياهمُ طرّبي بعضَ الأسيّ إنما أحببتَ إنسانا (69)  
لم تتجل الذاتية في ميادين الغزل وحدها، بل وجدناها تبرز في ميادين الفخر  
والمديح عند المتنبّي، وهذا ما نلمحه عند الشريف الرضي، ففي شعره كله نلمح ذاته  
الطامحة إلى المعالي والمجد:

وإنّي شقيقُ الوغى الندى رضيعُ لبانِ المعالي الجسم (70)  
ينظر الشاعر من حوله فلا يجد بين رجال عصره من يساويه محتداً وشرفاً  
وعلماً، وهو لذلك لا يجد فيمن يعايشهم من يرتقي إلى مستواه، ومن يحق له أن  
ينازعه حقاً موروثاً وعرشاً مطلوباً:  
أما أنا موزونٌ بكل خليفةٍ أرى أنفاً من أن يكون خليفتي  
ولذلك أوطن نفسه الذروة في خياله وشعره، وترك الآخرين في مراتب

(68) - نفسه 1 / 177 في الديوان زلازل، والصحيح بالذال جمع ذلائل وهي أسافل القميص، أو  
الريطة، وقيل: هي أثواب تلبس فوق بعضها، كل واحد منها أقصر مما تحته لتظهر كلها للناظرين، وقد  
غاب اللفظ عن المحقق - طفل العشي : قبل غروب الشمس

(69) - نفسه 2 / 474، الطرب: الحزن، الأسي: التعزية.

(70) - نفسه 2 / 371

دونها، كانت مطامحه العظيمة مرتبطة في تحققها ببلوغ الشاعر ذروته على أرض الواقع ، وكانت حقاً مغتصباً لأبد من إعادته، وكيف يتوقف دون ذلك وهو الشريف الذي ينبغي أن يسير على طريق أجداده ممن أثروا الفعل الحقيقي على أرض الواقع فكانوا شهداءه:

يُخيفونني بالموتِ والموتِ راحةً      لمن بين غربي قلبه مثلُ همّتي  
تريدون أن نُوطى وأنتمُ أعزّةٌ      بأيّ كتابٍ أمْ بأيةِ سنّةٍ  
فإن كنتمُ منا فقدُ طالَ ميلُكم      قديماً على عيدانِ تلكِ الأرومةِ  
ولا صلحَ حتى تسمعوا من أزيزِها      صواعقَ إما صكّتِ الأذن صكّتِ (71)

وتسري دماء الذائبة في شرايين شعره كله، فلا نستطيع أن نفصل شعره عن

ذاته حتى في ميادين المديح يقول:

عظفاً أميرَ المؤمنين فإننا      في دوحةِ العلياءِ لانتفرقُ  
ما بيننا يومَ الفخارِ تفاوتٌ      أبداً كلانا في المعالي مُعرقُ  
إلا الخلافةَ ميّرتك فإنني      أنا عاطلٌ منها وأنتَ مطوّقُ (72)

وهو إذ يمدح الطائع لله يفتح قصيدته بضمير المتكلم:

أنا للركائبِ إن عرضتُ بمنزلٍ      وإذا القنوعِ أطاعني لم أرحلِ (73)

وكأنه يؤكد أن ذاته هي المحور الأساسي الذي يدور من حولها شعره، لذلك نراه

ينسى من حوله ويفرد المطلع للحديث عن نفسه في مديح الخليفة:

مَسِيرِي إِلَى لَيْلِ الشَّبَابِ ضَالُّ      وَشَيْبِي ضِيَاءٌ فِي السُّورَى وَجَمَالُ  
سِوَاؤُ وَلكِنَّ البِيَاضَ سِيَادَةً      وَلَيْلٌ وَلَكِنَّ النِّهَارَ جَلَالُ

(71) - الشريف الرضي- الديوان 1 / 209 . الأزيز : الصوت - صكت الأذن : ضربتها ضرباً

شديداً - عربي : جانبي صكت الثانية على المجهول : أغلقت ولعلها صمت أي ذهب سمعها .

(72) - نفسه 2 / 42.

(73) - نفسه 2 / 114.

أنا المرءُ لأعرضي قريباً من العدى ولا فيّ للباغي عليّ مقالٌ (74)  
وتغلب هذه الذات في ساحات المديح حيث ينبغي أن تتوارى ذات الشاعر،  
فيخاطب الخليفة الطائع لله قائلاً:

لي مثلُ ملكك لو أظعتُ تقنّعي وذوو العمائم من ذوي التيجان  
ولعلّ حالي أن يصيرَ إلى غلىّ فالدوخُ منبئُها من القضبان (75)  
وإن كانت ذاته المتعالية تأبى أن تتوارى أو تنزل من عليائها فهو يؤكد أن  
من كانت همته بلوغ الذروة لا يمكن أن يكون مدحه تنازلاً عنها، وإنما هو سبيل  
يقوده إليها:

وإني إذا ما بلغَ الله مُنيّتي ضمّنتُ له هجرَ القريضِ وحبّيه (76)  
إن الشعر وسيلة لغاية أسمى وأرفع ، فالخلافة مطلب تحني أمامه هامة  
الشعر مهما علت ، والشاعر الذي يتسامى بنفسه ويراهم أحق بالخلافة يؤكد أنه  
سيهجر القريض إذا تحققت له أمانية السياسية ، ولاعجب في أن يغلق الشاعر أبواب  
الذات السامية ، ويدور في إطارها ليستمد منها الشعر والجمال ، ويسعد بالحب والأمل  
في زمن اختلت فيه الموازين ، وانهارت الأخلاق والقيم وفسدت أحوال المجتمع ،  
وهانت كرامة الإنسان .

### نموذج الهروب:

يتضح نموذج الهروب والانطلاق من إيسار الواقع أكثر ما يتضح في العصور  
المضطربة، وقد رأينا أن الحياة السياسية والاجتماعية في بغداد كانت لا تطاق حيث  
عمت الفتن والثورات، وفقد الأمن والغذاء، وأسهمت عوامل الطبيعة مع الإنسان في  
إشاعة الدمار والخراب، وقد عانى من الفوضى والفساد والاضطراب فئات الشعب

(74) - نفسه 2 / 124 .

(75) - نفسه 2 / 521 .

(76) - نفسه 1 / 135 - الحوب : الإثم

كله كما رأينا من قبل ، والشاعر لا يستطيع أن يغفل واقعه ومعاناة الناس القاسية فيقول:

وخطب على الزوراء ألقى جرانهُ      مديد النواحي مُد لهم الجوانبِ  
وأضرمها حمراء ينزرو شرارها      إلى جنبات الجو نَزوَ الجنادبِ<sup>(77)</sup>  
في هذه البلاد التي سدت فيها أبواب الرزق، وهان الإنسان وتوالت الخطوب،  
وهدمت طرق العلى والمجد لا مكان للشاعر، وعليه أن يرحل إلى بلد بعيد عن  
الحساد وأذاهم على الرغم من تعلقة الشديد ببلده ، وعدم رغبته في مغادرته، وأمله في  
تحقيق أمانيه على أرضه:

مالي لأرغبُ عن بلدةٍ      ترغبُ في كثرة حُسادي  
ما الرزقُ بالكرخ مقيمٍ ولا      طوقُ العلى في جيدِ بغداد<sup>(78)</sup>  
وقد هيأت له مهامه الرسمية لونا من هذا الهروب، حققه في رحلات الحج  
إلى ديار أجداده الجميلة الفاتنة بعيداً عن بغداد وعواصفها، ففي رحلاته هذه كان يبتعد  
عن موطن الحساد إلى حين ، ويخيل إليه أنه عاد إلى أرض الأجداد التي تحقق له  
ما عجز عن تحقيقه في بغداد ، فيرى ما لا يراه صاحبه ، ويحس أن العيد عيد الغرام  
ولقاء الأحبة وعيد تحقيق الأمانى :

أقول وقد عاد عيد الغرام      لما هبطن بنا الأجرافا  
أيأ صاحبي أتري نارهم ؟      فقال تُريني مالا أرى  
دعاني الغرامُ ولم يدعه      فأبصرتُ مالم يكن مُبصرا  
فما زلتُ أطربهُ بالحنين      وأذكرهُ المنزلَ المقفرا  
إلى أن تنفسَ عن زفرةٍ      وأنَّ من الوجدِ مستعبرا<sup>(79)</sup>

(77) - الشريف الرضي - الديوان 91 / 1 - الزوراء : بغداد \_ ألقى جرانه : ثبت واستقر

(78) - نفسه 295 / 1

(79) - نفسه 516 / 1 الأجر : موضع

إن الشاعر في طريقه إلى المدينة ، وها هو يحط رحاله في أجفر فرحاً مستبشراً لأنه اقترب من ديار الأحبة وقد لاحت نيرانهم لعينيهِ في الخيال ، فأحس أن الغرام يدعوه إلى عيد جديد ملؤه الحب والسعادة مع أحبته الذين فارقهم مدة من الزمن، ولكن أيام الحج لاتدوم ، وسعادة الشاعر ستنتهي ، وسيعود إلى بغداد التي عانى فيها من قبل مرارة الفراق وقسوة الحياة وكيد الحساد ، فهو في أمس الحاجة إلى الهروب من معاناته .

وحين كان يستقر في بغداد ولا يشارك الحجاج سعادتهم وجمال لياليهم ، إنه يراهم وقد تأهبوا للمسير فيشتد في نفسه الحنين إلى ديار الأحبة ، وتملؤه رغبة عارمة في مشاركتهم رحلتهم ، ولكن مهامه وظروف حياته تمنعه فتضيق به جنبات بغداد، وتفارقه راحة البال، فيخرج إلى ظاهرها مودعاً ركب الحجاج محملاً إياهم حاجات قلبه المعذب من حنين وشوق:

أيُّها الرائيحُ المُغذِّ تَحْمَلُ      حاجةً للمعذبِ لمِشْتاقِ  
أَقْرِ عَنِّي السَّلامَ أَهْلَ المُصَلَّى      وبلاغُ السَّلامِ بَعْدَ التَّلَاقِ  
وَإِذَا ما مَرَرْتُ بِالخَيْفِ فَاشْهَدْ      أَنْ قَلْبِي إِلَيْهِ بِالْأَشْواقِ  
ضَاعَ قَلْبِي فَانْشُدْهُ لِي بَيْنَ جَمْعٍ      وَمِنِّي عِنْدَ بَعْضِ تَلْكَ الحِداقِ<sup>(80)</sup>

يودع الشاعر موكب الحج، ويعود إلى بغداد لمتابعة أعماله ومهامه الرسميه فيها، لكن قلبه الهائم بالحسناوات، المشوق لتلك الديار يبقى في حالة ترقب ولهفة منتظراً عودته، وسرعان ما يهب للقاء الركب العائد من الديار المقدسة ليسأله عن حبيبه ويستعيد أيامه الخوالي وذكريات هواه، ويستمتع بلقاءات الحب في حلم يقظة جميل:

عَارِضاً بِي رِكبَ الحِجازِ أسأئلُه:      متى عهْدُه بِسكانِ سألُعِ  
وَاسْتَمَلًا حَدِيثَ مَنْ سَكَنَ الخَيْبَ      فَوَ لا تَكْتُبْهُ إِلا بِدَمْعِي

(80) - نفسه 2 / 79

فاتتني أن أرى الديارَ بطرفي فلعلي أرى الديارَ بسمعي (81)  
وقد أبدع الشاعر في تصوير الحسان في لوحات تنطق بالشاعرية  
والجمال، وتتصدر قصيدته الكافية ديوان الشعر العربي في ميادين الحب والفن  
والجمال يقول فيها:

ياظبية البانِ ترعى في خمائله ليهنك اليوم أن القلبَ مرعاكِ  
الماءُ عندكِ مبذولٌ لشاربه وليس يُرويكِ إلا مَدْمعي الباكي  
هبتَ لنا من رياحِ الغورِ رائحةٌ بعدَ الرقادِ عرفناها برباكِ  
ثم انثنينا إذا ما هزتنا طرباً على الرّحالِ تعلّنا بذكراكِ  
سهماً أصابَ وراميه بذِي سَلْمٍ من بالعراقِ لقد أبعدتِ مرماكِ (82)

استطاعت ظبية جميلة ذاقت حلوة الحياة وطيب العيش في خمائل الصحراء  
أن تخطف من الشاعر قلبه وتسكنه ، وما قنعت بغير الدموع شراباً سائغاً ، وما سمحت  
للمسافات أن تبعدا عنه ، فها هي رياها العطرة تعبق بها نسيمات الغور ، فتنتعش في  
الشاعر أحلام السعادة الماضية ، وتثير في نفسه ذكريات حب لا ينسى ، فيتخيّلها  
أمامه وقد رمته بسهام عشق لاتعترف بالمسافات ولا تخطيء الهدف . حين يهرب  
الشاعر من واقعه يحقق أحلامه في إطار تجربة واقعية حين يمارس مهامه في أسفار  
الحج ، أو تجربة متخيلة في وداع الحبيب ولقائهم ، وإن لم يسعفه الحظ في ذلك خلا  
بنفسه وعاش أحلام يقظته مع حبيبته في ذكريات عشق لاتنسى ، ولعل حرارة البوح  
وصدق العاطفة وعذوبة الموسيقى والتحليق في سماء الإبداع أوهم بعض الدارسين  
فربط القول بالفعل ، يقول عبد اللطيف شرارة: " إن الغانيات همّة الأول.. إن المرأة  
جملة وتفصيلاً تحرك في قلبه أوتاراً قل أن تحركها في غيره (83) ، لكن الشاعر

(81) - الشريف الرضي - الديوان 657/1

(82) - نفسه 107/2

(83) - الشريف الرضي ص52.

العاشق للمجد، الساعي إلى حقه في الخلافة لانتشغله النساء عن هدفه ولا تقعه عن ارتقاء سلم المجد، وما غزله إلا سبيل إلى العلى، وتفوق في ميادين الأدب: لغيرِ العلى مني القلى والتجنبُ ولولا العلى ما كنتُ في الحبِّ أرغبُ<sup>(84)</sup> فهو يؤكد أن غايته نيل العلى والمجد ، المجد في بيت الخلافة إن استطاع أن يحقق هذا الهدف الأسمى ، وفي بيت النقابة إن حرّمته الأيام من الوصول إلى سدة الحكم واستعادة مجد جده الأكبر . أما الحب فليس غاية ترحى عنده ، وشعر الغزل ما هو إلا سبيل إلى التفرد والتفوق على الآخرين ، فالمرأة لم تكن يوماً غاية يسعى إليها الشريف، والعشق لم يكن مما يشغل باله:

عشقتُ ومالي يعلمُ الله حاجةً سوى نظري والعاشقون ضروبُ  
ومالي يا لمياءُ بالشعرِ طائلٌ سوى أن أشعاري عليك نسيبُ<sup>(85)</sup>

إن العاشقين ضروب ، وعشق الشاعر ضرب لم يألفه الناس الذين عرفوا ألواناً شتى من العشق والحب واليهام في ميادين الحياة الاجتماعية ، واستمعوا إلى معزوفاته الجميلة في أحضان الشعر الغزلي . عشقه غريب عن عصره الذي عرف بعض غزله فساد الطبيعة والتهالك على الملذات ، فالرضي عدل عن نهج الشعراء في زمانه لأنه ليس عاشقاً في حقيقة أمره وليس به حاجة إلى الحبيبة والعاشقة ، فهو يكتفي بالنظر الذي يسعفه في تدبيح أشعار الغزل الجميل وقد أعلن الشاعر أن مطلبه لم يكن حظوة بين أحضان الغواني:

أنحني فيها طِلابُ العلى وذاك فخري عند أنادي  
أين الغواني من طلابي وما أطلبُ إلا الرائح الغادي<sup>(86)</sup>

(84) - الشريف الرضي الديوان 1 / 107.

(85) - نفسه 1 / 175.

(86) - الشريف الرضي الديوان 1 / 295 وفيها : أي في بغداد.

لقد عرفنا طموحه ورغبته في المعالي التي طوقت عنقه مذ كان فتى ، وحددت مسار حياته حين أصبح شاباً ، وأقامت الحواجز التي منعتة من مشاركة الشعراء عشقهم ومجونهم ، ولكن نفسه المرفهة تسببها لمحات الجمال البديوية وإذ يستترق النظر إلى الحجازيات والنجديات الفاتنات يملك عليه الجمال مشاعره المرفهة ، فيعزف ألحان الحب في شعر عذب سبا الأفتدة وخلده على مر العصور . لم يكن الغزل تعبيراً عن واقع الشاعر ، ولكنه هروب من زمنه، وتعويض عن معاناته من جانب، واقتصاد في القول بعيداً عن الفعل من جانب آخر، وبكاء الحياة المرة والزمن الأسود:

وليس نسيبي أن في القلب لوعةً ولكنني أبكي زماني وأندبُ (87)  
فما كان لمثله أن يتغزل بالنساء ويسعى في إثرهن محباً عاشقاً، ولم تستطع المرأة أن تتخطى الحواجز إلى مكامن اللوعة في قلبه، فقد آمن منذ طفولته أنه خلق لما هو أهم في نظره وأسمى، إنها الخلافة ولاشيء سواها وهكذا تتشابك هذه النماذج في حياة الشريف وشعره معاً، وقد تتعانق في القصيدة الواحدة فتبدو لناظرها كألوان الطيف في قوس قزح الذي يبشر بقدم الخير.

### الخاتمة:

إن الشاعر الشريف الرضي كان شهاباً محرقاً رجيماً في الغارات والحريبات، ونابياً عذباً رخيماً موقفاً في الحجازيات والغزليات، فالحريبات الخيالية ما هي إلا ثورة يدفع بها الظلم عن نفسه، ويعيد الحق إلى نصابه، وإن كان في خياله، فيجد نفسه الخليفة المنتظر لأنه أحق بهذه المكانة كما يؤمن في أعماق نفسه، فهو في الذروة شرفاً ومحتدأً وفي أعلى المراتب علماً وأخلاقاً، ولا يبلغ شأوه أدباً ومعرفة، وما الشعر إلا ذاته المتوقده حساً والمتفجرة غضباً، والساعية إلى بلوغ المنى وتحقيق العدالة، فإذا كانت الذاتية تلتقي مع الاقتصاد في بعض هذه القصائد فإن الذاتية تلتقي مع الهروب

(87) - نفسه 1 / 80 .

من الواقع الأليم في حجازياته، فهو يهرب من واقعه المملوء بالمتناقضات، ويكشف الغطاء عن الدوافع والغايات التي أساءت إلى الأفراد والجماعات، يهرب منها لينفرد بنفسه ويعيش لحظات السعادة مع أحلامه وأحبتة الذين فارقهم في ديار أجداده تلك الديار التي تمنحه الإحساس بالأمان والحب، وتغذي فيه أحلامه الضائعة بالمجد والفخر .

كان فنه للفن، وكان محسناً فيه كل الإحسان ومحباً فيه للكمال والإتقان. بل كان مدرسة شعرية ولغوية تخرج فيها من تخرج بعده من الشعراء الذين أولعوا بالشعر النقي والفن الرصين البهي، وأبرزهم مهيار الديلمي. ولا يزال ديوانه معيناً ثراً للمتأدبين ولعشاق الشعر العربي الراقى وللباحثين عن نواذر الألفاظ القريبة والبعيدة، ولكنها في تعلم اللغة العربية وتعليمها مفيدة أية مفيدة، زيادة على حسن النظم وبلاغة القول وعذوبة الإيقاع وقوة العاطفة.

### المصادر والمرجع

- ابن الأثير - الكامل في التاريخ - المطبعة المنيرية 1353هـ -
- أدونيس - مقدمة للشعر العربي - دار العودة - بيروت ط 3
- الأصفهاني - أبو الفرج - الأغاني - ط دار الكتب المصرية
- امرؤ القيس - الديوان - تحقيق أبو الفضل إبراهيم ط 2
- أمين - أحمد - ظهر الإسلام - القاهرة 1945م
- ابن تغري بردي - النجوم الزاهرة - دار الكتب المصرية
- الجاحظ - البيان والتبيين - تحقيق عبد السلام هارون - بيروت
- ابن الجوزي - المنتظم - حيدر أباد - 1357هـ -
- الحطيفة - الديوان - تحقيق نعمان أمين طه - مطبعة البابي الحلبي 1958م.
- ابن الرومي - الديوان - دار صادر - بيروت 1962م.
- شرارة - عبد اللطيف - الشريف الرضي - الشركة العالمية للكتاب - بيروت 1993م.
- الشريف الرضي - الديوان - مطبعة وزارة الإرشاد الإسلامي - ط إيران - 1406هـ.
- ضيف - د. شوقي - العصر الإسلامي - دار المعارف بمصر
- العاملي - بهاء الدين - الكشكول - تحقيق الطاهر أحمد الزاوي - دار إحياء الكتب العربية.
- العاملي - محسن الأمين - أعيان الشيعة - دار التعارف بيروت 1983م.
- العشماوي - د. محمد زكي - موقف الشعر من الفن والحياة - دار النهضة العربية - بيروت 1981م.
- أبو العلاء المعري - شروح ديوان سقط الزند - دار الكتب المصرية 1945م.
- عمر بن أبي ربيعة - الديوان - تحقيق فوزي عطوي - دار صعب بيروت .
- عنتر بن شداد - الديوان - تحقيق عبد المنعم عبد الرؤوف شلبي - المكتبة التجارية القاهرة .
- اليافي - د. عبد الكريم - الوجه الآخر للفنان - مجلة التراث العربي - اتحاد الكتاب العرب بدمشق العدد 31 - نيسان 1988م.